الأدب المـزابي وعلاقته بالبيئة الصّحـــراوية (قراءة في بعض النّصوص الشعرية والنثرية)

La littérature mozabite et sa relation avec l'environnement désertique (Lecture dans certains textes poétiques et prosaïques)

أ. يحي بن بهون حاج امحمد
جامـــــــعة غـــــــرداية
(*yahiabenbouhoun@yahoo.fr*)

مُلخّص البحث

يتركّز الكلام في هذا البحث حول النقاط الآتية:

- مقدمة (أهمية التراث ودوره في بناء الشخصية وتركيز الانتماء).
- وادي ميزاب البيئة والإنسان، وبعض السمات المميزة للتراث الأدبي الشعبي في المنطقة.
- إشكاليات تناول التراث الأدبي في وادي ميزاب (الواقع والآفاق).
- الأدب المزابي أبرز معالمه وخصائصه. وعلاقة الفنون الأدبية في ميزاب بالبيئة الصحراوية المحلية.
- الخلاصة والتوصيات.

Rèsumè

Dans ce travail de recherche, l'étude est centrée sur les points suivants:

- *Introduction (l'importance du patrimoine et son rôle dans la formation de la personnalité et la révélation de l'appartenance).*
- *M'Zab: l'homme et son environnement, certains traits caractéristiques du patrimoine littéraire et populaire de la région.*
- *Problématiques d'aborder ce patrimoine littéraire à M'Zab (Réalité et Perspectives).*
- *La littérature Mozabite, ses principes et caractéristiques.*
- *Relation des genres littéraires de M'Zab avec l'environnement désertique local.*
- *Conclusion et recommandations.*

1-المقدمة:

يقول شاعر ثورتنا المجيدة الأستاذ الكبير مفدي زكرياء في "إلياذة الجزائر" يصف صحراءنا الحبيبة:

ألا ما لهذا الحساب ومـــالي	وصحراؤنا نبع هذا الجمـــال
هنا مهبط الوحي للكـائنـات	حيال النخيل وبين الرمـــال
ومهد الرسالات للعـالمـــين	ونور الهدى ومصبّ الكمـــال
هنا العبقريات والمعجـــزات	وصرح الشموخ وعرش الجلال
تبادلنا الشمس إشعـــاعها	ويُلهمنا الصفو نور الهـــلال
ونعدو فنسبق أحـــلامنا	ونهزأ من وثبات الغـــزال
وجنبنا الغدر مـــاء الغدير	وحذرنا الظل نهج الضـــلال
وعودنا الصدق راعي المواشي	وعلمنا الصبر صبر الجمـــال
..فيا أيها الناس هـــذي بلادي	ومعبـــد حي وحلم فؤادي
وإيمان قلبي وخالـــص ديني	ومبنـــاه فـــي ملتي

لقد لخصت هذه الأبيات الخالدة مناظر الصحراء الخلابة والآسرة، كما نوهت بالثراء الفكري والثقافي الذي تميز به أهلها عبر مرور الأزمان، وهذا يقودنا دون شك إلى الحديث الشيق عن التّراث وعن مجد الأمّة العريق، لنستعرض عصارة حضارة أنتجتها عقول أجيال، عبر كثير من الاجتهادات الإنسانية الصّائبة والخيّرة، والتي استطاع فيها أبناء الأمّة أن يقدّموا كلّ خدمة جليلة ومكرمة خالدة، ونتاج إنساني نافع، أسهم في صنعها الذّوق الفنّي الرّفيع.

ولما أدركت فئة خيّرة من أبناء هذه الأمّة حقيقة الحفاظ على التّراث، سارعت إلى إعادته صفحة مشرقة من صفحات الحضارة الإسلامية، ليغترف منه شباب الأمّة دروسا وقيما رائعة، ومن تراث الأمة أدبها الشعبي المكتوب والشفهي، فهو جزء لا يتجزأ من ماضيها، وعنوان شموخها وعزتها، وبذل الجهود في بعثه وإحياءه مهمة الجميع.

ولا يكاد يختلف اثنان في أن تدريس تراث أسلافنا لأبناء الجزائر من الناشئة يعزز ويركز فيهم انتمائهم، ويبني شخصيتهم الوطنية، فينشئوا بذلك متزني الشخصية، متعلقين بأوطانهم وتاريخ أسلافهم، مقتدين بسيرهم، متبعين لنهجهم، ومبلغين لرسائلهم لمن يأتي من بعدهم، ويعزز هذا الرأي أقوال المؤرخين والمتخصصين، إذ يقول عبد الرحمن بن محمد الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام في التقديم لكتابه الجليل: "..وأسهبت مشبعًا البحث في العصور الإسلامية إسهابًا يحمل الشاب المسلم الجزائري على احترام بلاده، وتمجيد تاريخه اللامع العظيم، والثقة بمستقبله الزاهر النير، وإعداده لوصل حاضره بماضيه، حتى تتكامل فيه أركان الحياة الأربعة: المحافظة على شخصيته وميزته، وتقديس أسلافه الأمجاد، والتمسك بدينه، والعمل على الإشادة بوطنه.."[2]

ومن هؤلاء أيضًا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي يؤكد في إحدى وصاياه للمربين والمعلمين:"ربّوهم على ما ينفعهم وينفع الوطن بهم، فهم أمانة الوطن عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم.." [3]

وإن هذا الكلام ينطبق على كلّ الأمم بدون استثناء، فهي جميعها تستلهم أمجادها وتبني نفوس أبنائها الناشئين من خلال تدريس تراث أدبائها وشعرائها..، والتراث الأدبي الجزائري لا يقل أهمية عن الدرس الأدبي لأي عصر من الأعصر الأدبية، بل هو جزء منها، وحلقة في سلسلة تاريخ الأدب العربي لا بدّ أن تأخذ نصيبها من العناية والدراسة، "..إن الكتاب المغربي هو أعظم سفير للمغرب[4] في أنحاء العالم، وهو التاج الذي يزينه، والكنز النفيس الذي يورثه الثقل في ميزان الشرف والمجد والنضوج فترجحُ كفّته، إن محاسن المغرب كلها تبقى في المغرب، ولكن كتاب المغرب هو الذي يرى العالم فيه حقيقته، وهو قبل هذا الغذاءُ الصحيح اللازم لناشئتنا وأمتنا، والوسيلة الكبرى لتربية المجتمع، وتوجيهه إلى المثل العليا التي كابدنا طويلاً، وجاهدنا الاستعمار من أجلها.."[5]

ضبط بعض المصطلحات:

قبل الولوج إلى صلب الموضوع أرى أنه من الواجب ضبط بعض المصطلحات، وتحديد بعض المفاهيم التي سيدور الحديث عنها، ومنها خاصة: الأدب المزابي، فالأدب هو معظم ما عرف من الأجناس الشعرية والنثرية، وميزاب: هي بلاد الشَّبْكَة الهضبة الصخرية الكلسيّة، التي تقع شمال صحراء الجزائر، وتتميّز عن بقية المناطق المجاورة لها بطبيعتها القاسية[6]، وسكانها الأصليون بربر، وهم بني مصاب أو مزاب، ولغتهم المزابية، وهم بطن من زناتة، كما يرى ابن خلدون وآخرون: "..وقصور مصاب سكانها إلى هذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد، وبني توجين، ومصاب، وبني زردال فيمن إنضاف إليهم من شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب.."[7]، وقد بنَوْا العديد من القرى على ضفاف واديهم، منها ما اندثر، ومنها ما لا يزال عامرا إلى اليوم، أما الحاضر منها فقُرى: تَجْنِينْتْ (العطف)، آتْ بُنُورْ (بنورة)، آتْ يَسْجَنْ (بني يزقن)، تَغَرْدَايْتْ (غرداية)، آتْ مْلِيشَتْ (مليكة)، آت إِبَرقَانْ (بريان)، وتِـقْرَارْ (القرارة)، وإن كانت بريان والقرارة بعيدتان نسبيا عن وادي ميزاب، ولكن سكانها يتكلمون المزابية، وتربطهم بسكان الوادي أواصر القرابة والمذهب.

واللغة المزابية أصلها زناتية، وهي قريبة جدا من القورارية والشاوية والشلحية والنفوسية، ومن خصائصها الابتداء بالساكن كقولهم: (تْمارْتْ) للّحية، و(تْفُويْتْ) للشمس، ومن خصائصها أيضا اجتماع ساكنين أو أكثر، كما في المثالين السابقين، وتاء التأنيث تكون في أول الاسم مثل (تَفُونَسْتْ) للبقرة، وقد ترد في آخره (تْوَارْتْ) للبؤة..

والمزابية غنية بالتراكيب المتناسقة، والمفردات الجزلة والعميقة، وغنية بالأمثال والكنايات التي من شأنها الإيجاز، وما يُغني عن كثرة الكلام، كما أن في المزابية شعر مناسبتي كثير، وهو للرجال والنساء والأطفال.

هذا وإن اللغة المزابية قد تأثرت كثيرا باللغة العربية لغة القرآن الكريم، وقد استطاع المزابيون صياغة الكثير من المفردات العربية على

قواعد لغتهم، فانسجمت معها بشكل كبير، حتى صارت جزءا منها، وقد لا ينتبه إليها إلا من دقق النظر فيها، فكلمات: أَزُمِي، ضْزَالِّيتْ، أَمْبَارَشْ.. أصولها عربية، وتعين على الترتيب: الصوم، الصلاة، المبارك[8].

2- الثقافة الشعبية:

إن مصطلح الثقافة الشعبية غامض في ظاهره، ولكنه يقوم على محورين؛ أحدهما يتمثل في الفكر، وثانيهما في الفعل.

والثقافة الشعبية هي مجموع متماسك من الممارسات والمعايير والرموز والتمثلات والإبداعات، والأشياء التي تعبر عن الحياة اليومية بمختلف مجالاتها، وتنقسم الثقافة الشعبية إلى نوعين: ثقافة دارجة، أو عامية، وثقافة تقليدية أو مأثورة.

وإذا كان النمطان من الثقافة يشتركان في أنهما من إنتاج عامة الناس ينتجونها ويستهلكونها في محيطهم، فالثقافة الدارجة تعدّ في موقع وسيط، حيث تسعى لتكيف واسع مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية.

في حين نجد الثقافة التقليدية تكتنز في ذاكرتها تجارب الأسلاف، إلا أنها تعبر في الوقت نفسه عن خبرة الجماعة الحاضرة، وهي وإن كانت أكثر محلية ومحدودية إلا أنها تبقى المعين أو المخزون الذي تنهل منه الثقافة الشعبية، وهناك من يرى أن الثقافة التقليدية لم تعد تحتل مكانتها المركزية السابقة في المجتمع الجزائري، إذ إن الحرفي والمداح والقوال أو الشاعر المتجول والحكواتي قلّ حضورهم وصاروا نادرين[9].

مواقف المثقفين من الثقافة الشعبية:

لقد تباينت مواقف المثقفين من الثقافة الشعبية وفقا لتوجهات تياراتهم المتنوعة وانتماءاتهم الاجتماعية، وتسلم الآراء المتباينة بأن الثقافة الشعبية تكوين صاغته أجيال ماضية، ثم جمدت هذه الصياغة وتوقفت، وما يتناقله الجيل الحاضر ليس إلا رواسب ومخلفات من هذا التكوين الذي هو في طور التفتت والتلاشي. ولا يقوم الجيل الحالي إلا بدور التكرار وإعادة الترديد لهذه البقايا التي فقدت وظائفها الأصلية.

بيد أن البحوث الميدانية تنفي هذه المواضعة التي يسلم بها أصحاب هذه المواقف ويعتبرونها حقيقة، إذ تشير تسجيلات العمل الميداني وملاحظاته إلى أن الثقافة الشعبية مازالت فاعلة وحية، وأنها تشكل بنية متكاملة. وهي تستجيب للتغيرات والتكوينات الجديدة[10]..

3- موقع الأدب الشعبي الجزائري والمغاربي من الدروس النظرية في الجامعة الجزائرية:

فيما يتعلق بالدرس النظري للتراث الأدبي الجزائري ممثلا في مقياس الأدب الشعبي يمكننا الوقوف على عدة ملاحظات تعكس واقع هذا المقياس في برنامج الجامعة الجزائرية ومنها:

أولا- هذا المقياس يتناوله الطلبة في السنة الثالثة كلاسيكي (محاضرة وتطبيق)، وفي السنة الثانية من النظام الجديد (LMD) محاضرة فقط!!، وكثيرا ما يتعمد بعض الأساتذة الاستنقاص من شأن المقياس وهم يقارنونه بالمواد الأخرى!!

ثانيًا- بالنسبة للبرنامج الخاص بمقياس الأدب الشعبي -موضوع الدراسة- فهو كما يأتي:

1- نظرية الثقافة: تحديدات ومفاهيم.
2- الثقافة الشعبية/ الفولكلور.
3- علم الفولكلور: النشأة والتطور.
4- الأدب الشعبي: التحديدات والمفاهيم.
5- مناهج دراسة الأدب الشعبي:
أ- المنهج التاريخي الجغرافي.
ب- المنهج النفسي.
ج- المنهج الوظيفي.
د- المنهج البنيوي.
هـ - الإثنو أدبية.

6- أشكال التعبير الأدبي الشعبي:

الأمثال – الألغاز – الأساطير – الحكايات الشعبية – الملاحم.

7- الأدب الشعبي الجزائري:

الشعر الملحون – الشعر الجمعي – القصص – الأمثال - الألغاز.

8- الأدب الشعبي العربي:

السير والملاحم – ألف ليلة وليلة – قصص الحيوان – الأمثال [11].

يتناول الأستاذ المحاضر في الفصل الأول التعريف بالمقياس وتحديد مفاهيمه ومناهج البحث فيه، وفي الفصل الثاني أشكال التعبير الأدبي الشعبي، والأدب الشعبي الجزائري، والأدب الشعبي العربي، لكن الملاحظ عموما هو أن الكثير من الأساتذة يبقون مشدودين إلى آثار الأدب الشعبي المشرقي، خاصة في دراسة السير والملاحم، متناسين تماماً أو متغافلين عن الأدب الشعبي الجزائري والمغاربي، فينتهي الموسم الدراسي دون الولوج إلى تحليل النماذج المغاربية الرائدة التي تميزت عن غيرها، وقد يقتصر بعضهم الآخر على تقديم نماذج محدودة ومطروقة بكثرة، غافلا أو متغافلاً عن إبراز الكثير من التجارب الأدبية المغمورة، والمتواجدة في مختلف مناطق مغربنا الكبير تقريباً.

ثالثا- فيما يتعلق بتنويع النماذج فالملاحظ هو إهمال العديد من العينات المحلية، أو المتميزة بخصوصية اللهجات الأمازيغية، وما يتعلق بتراثها الشفوي، إذ معظمها يتقاطع مع بعضه البعض، فالمْزابية قريبة من الشَّاوِيَّة ومن الشَّلْحِيَّة ومِن النَّفُوسِيَّة كما أسلفنا، وبإمكان الأستاذ المحاضر في أي جامعة مغاربية كانت أن يُبرز لطلبته المنحدرين من المناطق التي تشتهر بتلك الخصوصية أكبر عدد من النماذج الفكرية والأدبية، وأن يدلَّ الباحثين منهم على الأدباء المغمورين، وعلى المكتبات العامة والخاصة في تلك الجهة من وطننا الكبير، دون أن ينسى بقية الجهات الأخرى، وبهذا يحصل التواصل المنشود، وتتكامل الجهود.

ولعلي أدعّم هذا القول برأي المؤرخ الجزائري محمد علي دبوز حيث يقول: "..إن تاريخ الجزائر الحديث إذا لم نعجل به يضيع، فيا ليت كُتاب الجزائر يهتمون به فيكتب كلّ عن ناحيته كل ما يستطيع الوصول إليه، فيتكون لنا من مجموع ذلك تاريخ الجزائر الكامل، وليس تعصُّبا أن يُقصر المؤلف جهوده على ناحيته، فإنه واجب فرض، لأنه أعرف بها من غيره، ويستطيع من البحث فيها ما لا يستطيع سواه، ثم هو قد شاهد وحفظ من أحداثها التاريخية ما لم يعرف غيره، فيجب أن يقدم كلّ ذلك إلى القرّاء، وإذا كتمه وضاع يكون آثما، وقد رأينا القدماء يخصّون بلدانهم بتآليف واسعة، فلم يعدّ الناس ذلك تعصبا بل واجبا وفضيلة عظمى.."[12].

4- إشكالية تناول التراث الأدبي الجزائري الشفهي والمسموع:

بالنسبة لإشكالية تناول التراث الأدبي الجزائري الشفهي والمسموع، يقتضي هذا وجود مناهج خاصة تعنى بجمع ودراسة هذا التراث المتناثر ونقله من الشّفاه إلى الكتب، خاصة ما يتعلق منه بالشعر الشعبي أو الملحون وبالقصص والأمثال الشعبية.. وكل ما يتعلق بالثقافة الشعبية من عادات وتقاليد، إذ امتازت مناطق عديدة من الوطن بتنظيمات اجتماعية محكمة، وهيكلية تربط طبقات المجتمع بعضها ببعض، ومن هذه النماذج الحاضرة نجد المجتمع المزابي، فتراثه يظل بحاجة ماسة إلى تسليط الضوء عليه كموروث حضاري يجب تثمينه، والعمل على ترقيته والمحافظة عليه، لأنه جزء من هوية تلك المجموعة البشرية الصغيرة المنتمية إلى المجموعة الكبيرة التي وإن كانت تتقاسم معها مجموعة معتبرة من الفنون الشعبية والممارسات الاجتماعية وأنماط التفكير وأساليب التعبير، لكنها فقدتها للأسف مع مرور الزمن، وبالتالي فإن الحديث عن الدواوين الشعرية الشعبية وعن أمثال شعبية محلية، وقصص وروايات محلية أيضًا.، يستدعي عملاً منظمًا ومتواصلاً لرصد الموروث المشتت وتدوينه، حتى يُدرس ويبعث من جديد في المجموعة التي ينتمي إليها، مثل

أهازيج الحصاد والبدر، والتويزة، والأعراس، واحتفالات الأطفال.. وغيرها، مما يُتداول في تجمعات الرجال أو النسوة أو الأطفال، وهو ما سنتعرض لبعضه لاحقًا.

5- الأدب المزابي في ظل إشكالية الجمع والتناول:

يطرح الأدب المزابي عمومًا إشكاليتي الجمع والتناول، أما الجمع فيأتي من تشتته في المصادر الشفوية هنا وهناك، فكل قصر من قصور وادي ميزاب السبعة يحتفي برصيد شفهي متنوع وغني بالقيم الفنية والجمالية، في حين أن إشكاليات التناول تأتي من قلة الإقبال عليه من طرف الطبلة والباحثين، من أبناء المنطقة، ممن هم وثيقي الصلة بلغتهم الأم، وأعرف أكثر من غيرهم بتفاصيل الحياة اليومية، وبالعادات والتقاليد الخاصة بمجتمعهم الصغير..

اللهم إلا فئة قليلة جدًا، ينظر إليها في العادة بنظرة الانتقاص أو التخوّف، لأنها -في تصور البعض- قد تكون مدخلاً إلى التعصب البربري على حساب اللغة العربية، أو إلى الجهوية على حساب الوحدة الوطنية الجزائرية..

ولم يكن ليرد هذا أو ذاك فيما عرفناه وشاهدناه، فسكان الصحراء هم من حمى اللغة العربية ومنعها من الذوبان في بوتقة الاستعمار الفرنسي مدة 132 سنة، تماما كما ضرب أهلها أروع الأمثلة في الفداء والوطنية، وقدموا الغالي والنفيس في سبيل وحدة التراب الوطني واستقلاله لمّا عُرض عليهم فصل الصحراء عن الشمال..

إذن لهذه الأسباب وغيرها همّش الأدب الشعبي، وبالرغم من أن القصة الشعبية على أنواعها كانت تُقدم باللغة المحكية أو بما هو أقرب إلى اللغة المحكية، ولم يكن لها هدف الإثراء اللغوي المكتوب بل التعبير الكلامي عن العواطف من مخاوف وأُمنيات، وبالتالي بأي لسان سيعبّر الأديب عن هذا الأدب؟!

ومن هذا المنطلق، عندما نتناول القصة الشعبية الحديثة، على اللغة الفصحى أن تلفت الانتباه إلى ذاتها، وهي هنا في صراع آخر بين

اللغة الفصيحة الأدبية وبين مقدور القرّاء استيعاب هذه اللغة. فهل نحن -إذن- إزاء اكتشاف وخلق لغة جديدة ما بين المحكية والفصحى؟! أم أننا أمام لغة عربية فصيحة، مبنية من طبقات متعددة، يستمد منها الطفل الطبقة الأولى المسطحة مع إهمال شحناتها التاريخية؟! وما عليها أن تورده من أفكار وتجارب بعيدة المدى؟!

كذلك فيما يتعلق بتدريس هذا النوع من الأدب في المدارس الرسمية أو المعاهد الحرة في ميزاب، فهو غير مطروق بصورة متكاملة، بل الأمر موكول فيه لبعض المجتهدين، إذ العجز مسجل وواضح، والمبادرة إليه من طرف إدارة المدارس غير مذكورة بتاتًا، لتبقى بذلك العهدة على البيت وحده، وعلى المجتمع من بعده إن شاء تعاون في هذا الأمر أو تركه.

هذه بعض الإشكاليات التي تطرح نفسها للباحثين المتخصصين، ونفس الكلام -من دون مبالغة- يقال عن اللهجات البربرية الأخرى؛ كالشاوية والشّلحية والتّارقِية.. وغيرها، كما يطرح بعض الدارسين قضية الخط والكتابة، هل تكون بالحرف العربي أم الفرنسي أم البربري (التِّفِينَاغْ)..؟!!.

مع ذلك لا بد من ذكر جهود بعض المجتهدين في الأدب المزابي، ومنهم: عبد الرحمن حواش في التاريخ والتراث المزابي؛ الأخوين عبدالسلام المتخصصين في اللغة والنحو المزابي؛ أحمد نوح مَفْنُون في الحكاية الشعبية المزابية؛ عبد الله نوح في الأدب المزابي المقارَن؛ ترشين صالح وداوي عمر وعبد الوهاب فخار وآخرين.. في كتابة وأداء الشعر المزابي.. ولكل هؤلاء وغيرهم أعمال أدبية مطبوعة، وتسجيلات فنية في السوق الجزائرية.

إن ما يمكن قوله في هذا الحيّز الضيق هو أن هنالك بعض الدراسات المتعددة في هذا المجال، ولسنا نريد الدخول في تفاصيلها، لأنها ليست من صلب موضوعنا، ولكننا رأينا أنه من الواجب لفت الانتباه إليها، وذلك لما يُمكن أن يُعقد حولها من بحوث متخصصة أو دراسات أكاديمية مستفيضة.

6- الأدب المزابي أبرز معالمه وخصائصه:

أ. القصة الشعبية -تنْفُوسْتْ- (موضوعاتها وخصائصها):

تسمى القصة بالمِزابية تَنْفُوسْتْ، ولا أدري مع البحث ما أصل التسمية بالضبط، وإن كنت أحسب أنها جاءت من التنفس أو المتنفس، وهذا ما استنتجته من خلال ملاحظتي لعديد من القصص في ميزاب، كما سيأتي بيانه.

أما **موضوعاتها** فمتنوعة، ومن أبرزها:

1. التعرف على الظواهر الطبيعية: من ذلك قصة ظهور "كُحل العينين"، والذي يسمى بالمزابية "تَازُلْتْ" (تنطق الزاي مفخّمة)، إذ يروى أن سيدنا نوح (عليه السلام) بعد طول مكثه في السفينة تأثرت عيناه بالضباب الكثيف، فسأل الله الشفاء، فأنزل له ولمن معه هذه الحجرة العجيبة، فاستعملها وبرأت عيناه، لذلك تنصح الأم بناتها باستعمال الكُحل.

ومنها أيضًا الملح الذي يعطى لسائله بدون مقابل، لأنه مائدة سيدنا إبراهيم الخليل(عليه السلام) كما يقال، إذ يروى أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) نذر بأن يطعم كل ذكر وأنثى إن رزقه الله بولد، ولما رُزق بسيدنا إسماعيل (عليه السلام) سأل الله أن يلهمه ما يُوفّي به نذره، فأوحى الله إليه أن يتصدق بالملح فكانت تلك الصدقة جارية إلى يوم القيامة، إذ لا يوجد طعام قلَّ أو كثُر إلا ووضع فيه الملح.

ومنها كذلك قصص حول الحيوانات والحشرات، كقولهم في تربية الطفل "لا تقتل النمل وإلاّ أُصبت بالرّمد"، فيدفعون بذلك أذيَّة الأطفال عنها وعنهم أي عن الأطفال، ويعلمونهم احترام هذه الحشرة الصغيرة النافعة.

2. السير الذاتية والحياة اليومية: وهي ما تحكي فيه المرأة لبناتها تجربتها في الحياة في شكل قِصص، أو تحكي البنت لصديقاتها أيضا قصصًا من نسج خيالها، تعبر فيها عن واقعها أو عن أحلامها.

3. **الأساطير والخرافات:** وهي عديدة وكثيرة (في صراع الحق والباطل، والشر والفضيلة..).

4. **قصص الأنبياء عليهم السلام.**

5. **قصص أولياء الله الصالحين (كرامات المتقين):** مثل الشيخ بحيو موسى العطفي، الشيخ أطفيَّش، فافة دَادِّي...

6. **قصص من كتب الأدب مترجمة إلى المزابية:** الفلاح وأبنائه والكنز المدفون، القرد والغيلم، الغراب والثعلب..

ومضامينها في العادة بسيطة وبريئة، وجميعها محكي بالمزابية، وقليلها يحوي حكمًا شعبية بالدَّارجة.

ومن خصائصها:

1- **السرد المتواصل:** فالمرأة المزابية وهي مع بناتها، أو قريباتها في المنزل يشتغلن طول اليوم بواجبات منزلية مختلفة؛ كالطهي وتنظيف المنزل.. والنسيج، خاصة هذا الأخير الذي يأخذ حصة الأسد من المهام اليومية، إذ تجلس المرأة إلى منسجها من الصباح إلى المساء، مع أخذ قسط من الراحة بطبيعة الحال في فترة القيلولة أو قيامها إلى الصلاة، وقد كانت صناعة المنسوجات -وما تزال- بالنسبة للمرأة المزابية عنصر حياة، إذ تأثث المرأة بيتها بالأفرشة التي تصنعها، وكذلك تأثث بيت بناتها المقبلات على الزواج، وتساعد بها الزوج في تغطية مصاريف الحياة المختلفة، فما تنسجه المرأة يباع في السوق، وثمنه يكون زادًا للحياة الصعبة والقاسية..

وخلال العمل المتواصل في النسيج تحكي المرأة عادة قصصًا خيالية أو واقعية مستوحاة من حياتها اليومية على مسمع من بناتها، حتى يتعلمن ويستفدن من تجارب الحياة، وتدور القصص أساسًا حول المرأة الصابرة، والمرأة العاملة المكافحة في بيت زوجها، والمرأة الطائعة لزوجها وحماتها.. إلى غير ذلك مما يمكن أن تتعرض له كل امرأة متزوجة، أو فتاة مقبلة على الزواج من أنواع الظلم والتعسف الذي قد يحدث في بعض الأحيان لسبب أو لآخر، فتصبر على تلك العِشرة وعلى مرارة الحياة

حتى يرزقها الله ذرية صالحة طيبة طائعة، فتنسيها كلّ ما عانته.. وهكذا.

2- اقتصارها على مواضيع معينة: إذ يلاحظ دوران معظم القصص حول الصبر والعمل، ولعل سر ذلك ومنشأه هو حياة المزابيين أنفسهم، فنشأة قرى ميزاب وعمران هذا الوادي الصخري القاحل لم يكن إلا بصبر كصبر أيوب، وبعمل متواصل دؤوب، وباغتراب فلذات الأكباد سنوات عديدة طلبًا للرزق الحلال..، وأفضل مثال على ذلك هو حفر الآبار في رؤوس الجبال بجوار المسجد، فهذه الآبار قد يزيد عمقها عن السبعين مترًا، وقد يستغرق حفرها جهد أربعة أجيال، وفي العادة من يبدأ الحفر لن يُكتب له العيش حتى يشرب من تلك البئر، ونفس الشيء في إنشاء الواحات التي كانوا يَحيونَ بها، فحياة المزابيين كلها كدّ واجتهاد، ومن هنا اصطبغ أدبهم بتلك الصبغة المتميزة.

ولعل ما يستنتج أيضا من إنشاء المرأة لهذه القصص والحكايات هو: تسليتها لنفسها أولاً، ولمن معها ثانيًا، فهي بقصصها تلك تتناسى همومها وتؤنس وحشتها بغياب زوجها، وتقوي عزيمتها لمزيد من العطاء والصبر ومجاهدة النفس ابتغاء مرضاة الله تعالى، وتشحن نفسها كذلك بالإيمان وبالإرادة والتفاني في العمل.. ونفس الشيء يفيد معظم من حولها من المستمعات، خاصة بناتها المراهقات أو المقبلات على الزاوج.

فنيات أخرى:

هناك من القصص ما هو موجه من الأمهات للأطفال: وهذه القصص خيالي جميعها تقريبا، فالمرأة الصنّاع في بيتها تشتغل في المنسج من الصباح إلى المساء، ولا تقوم منه في العادة إلا للضرورة كالصلاة وإعداد العَشاء، بحيث يكون الإعداد له قبيل المغرب بقليل، إذ بين المغرب وصلاة العِشاء ينتظر الأبناء عودة والدهم من المسجد حتى يجلسوا إلى مائدة العَشاء، وحتى لا يغلب بعضهم النعاس فينام من دون عَشاء، فإن الأم تحكي لأبنائها قصصًا متنوعة، معظم ما يراد منها هو: تركيز

الأخلاق الفاضلة في نفوسهم، كتقوى الله تعالى والصدق والوفاء وطاعة الوالدين..إلى غير ذلك من الواجبات وفضائل الأخلاق..

أ- قصص الأطفال بالمِزابية: وهو على أنواع، منه ما هو موجه من الأطفال للأطفال: ويكون عادة في ليالي الشتاء الطويل، أو في أمسيات الصيف الطويلة، وكما هو معلوم فإن سكان ميزاب منذ قديم الزمان، يملكون نوعين من المساكن، سكن في القرية يقيمون فيه طول الشتاء، وسكن في الواحة يقيمون فيه طول فصل الصيف إلى بداية الخريف، بحيث لا يغادرونه حتى ينتهوا من جني جميع ثمور نخيلهم، وخلال الفصلين تتميز ظاهرتين هما طول ليالي الشتاء، وطول أيام الصيف، ففي فصل الشتاء الطويل يجتمع الأبناء في الحجرة التي تجلس فيها العائلة للأكل والسمر، وتسمى بالمزابية "تِسَفْرِيْ"، بينما تكون الأم كما أسلفنا في منسجها أو أمام الموقد تباشر إعداد العَشاء، يجلس الأطفال في حلقة ينشئون القصص الخيالية، ويتسامرون بها إلى حين حضور العَشاء، وقد يبقون كذلك وقتًا معتبرًا إذا كانت فيه مناسبة سعيدة؛ كاجتماع العائلة الكبيرة حول مولود جديد أو ختان.. أو غيره، فتطول سهرتهم تلك إلى ساعة متأخرة من الليل.

وقد كانت هذه الأجواء الحميمة في ميزاب تصنع البهجة والحبور في نفوس الأطفال قبل ظهور التلفاز، وما تزال -بتحفظ شديد- في بعض القرى، إذ عندما يحين فصل الصيف وتتجه العائلات إلى الواحة للإقامة الصيفية لا تجلب معها جهاز التلفاز، وفي ذلك يستفيد الجميع من جوّ الراحة والهدوء، وفيه تُباشر العائلة أعمالا أخرى فردية أو جماعية كصبغ الصوف وغسله، وجني التمور..[13]، وفي أمسيات الصّيف الطويلة أي مِن بعد صلاة العصر إلى آذان المغرب، وقت لا بأس به، يجلس فيه الأطفال في حديقة منزلهم بالواحة تحت ظلال النخيل وأشجار الفاكهة، على بساط من الرمل الناعم يلعبون ويحكون القصص، وينشؤون الأحاجي والألغاز..، وقد يرتبط معظم قصصهم بالوسط الذي هم فيه، إذ تدور قصصهم داخل جو الواحة، وحول مغامراتهم مع الأطياف التي

تسكن في منازل الطوب المهجورة في الواحة القديمة، وحول الحيوانات الأليفة والمتوحشة التي تجوب الصحراء..

من أمثلة هذه القصص:"مُرْ وَاصْبَرْ"، "أَخَّامْ نِ إِزْغُغَنْ"(منزل الأطياف)، "لْجُورَتْ نَ اصْبَرْ دَ الْحِكْمَتْ"(سيرة الصبر والحكمة)، "بَابْ نَ لْخِيرْ دْ تَلَفْسَ"(فاعل الخير والأفعى)، "أجَلِّيدْ دْ وُامْرَابَطْ"(الملك والرجل الطيب)..

ب. الشعر –إِزَلْوَانْ- (موضوعاته وخصائصه): إن هذا العنصر بالذات يحتاج إلى كثير من البحث والعناية، فالشعر المزابي شفويٌ جميعه، وبعضه محفوظ عند الكبار أو المسنين، لكن جمعه وتدوينه لم يعرف تطورًا كبيرًا، وما جمع لم يعرف طريقه إلى المطابع إلا في مبادرتين طيبتين؛ الأولى للأستاذ عبد الوهاب حمو فخار، أستاذ الأدب المزابي بمعهد الإصلاح بغرداية، والثانية للأستاذ صالح عمر ترشين أستاذ الأدب المزابي بالمدرسة الجابرية ببني يزجن، ويسمى ديوان الأول:"إمطَّاون نَلفَرْحْ" (دموع الفرح)، في حين يسمى ديوان الثاني:"أُلِي نُو" (قلبي).

ونذكر شيئا عن ديوان "إمطَّاون نَلفَرْحْ"، إذ يُعدُّ أول تجربة شعرية مطبوعة بالمزابية، يحوي الاجتماعيات والتاريخ والطبيعيات والمناسبات، والديوان جميعه في الوجدانيات تقريبا، وهو مفعم بشعر الطبيعة، والحنين إلى الماضي البهيج، يسبح في جو الواحة الأخّاذ، ويسجل الذكريات، إليكم بعض الأبيات بالمزابية، والتعليق القريب منها بالعربية.

وهذه الأبيات من قصيده "نَشّ مْعَ وَكْبُورْ"[14] أي: (أنا مع العتيق)[15] وهي في يوميات الميزابي بالواحة:

نَشّ مْعَ وَكْبُورْ، نَشّ مْعَ إِنَّايْ، إِنَّايْ قاعْ تَخْسَمْ يَسْبَايِ أَكْبُورْ نَتَّا دْوَسَّانَسْ	أنا مع العتيق، أنا مع الجديد، الجديد كلكم يحبه أخذ مي القديم وأيامه.
نَشّ مْعَ تْمَالَفْتْ تَطَّفْ تِغَدْوِينْ تِزِيتْ إِ بُوعُودْ يَبِّيتْ يُوجَلْفَسْ	أنا مع الخشبة (جدع النخلة) تمسك الجريد (وهي تحمل السقف) السعفة أخذها العصور لعشه
طَشَّ تْدِّي، تْبَطَّانْتْ اتْسَتِّي	مشط المنسج يُدق، والقربة تقطر

أَنَفْدُ سْ وَغْلاَدْ يَتْفُوحَا كَدْرَانَسْ	الصيف من الشارع يشم قطرانه
نَشِّ مْعَ تْسِيرَا، دْوُ نِير إِتِيرَا دْوَ كْمَاشْ تِسَفْرِي تَالْسَنْ أَلاَّوَسْ[16]	أنا مع الرحى الحجرية، ومصباح الزيت للكتابة والتدفي في حجرة الجلوس يحكي فأله الحسن
قَاهْوَا سْ إِضْلاَ، تِرْضُونِينْ نُ فَا مْعَ وْغِ نْ تْغَاطْ إِتْوَزَّجْ سْ إِفَّانَسْ	القهوة بحطب الوادي، خبز الطاجين (الطيني) مع حليب المعزاة محلوب من أثدائها.
نَشِّ مْعَ تْزِيرِي دِتْرَانْ أَجَنَّا تَجَرَّارَتْ تَسْلِوْلِيوْ تَّالَسْ وَسَّانَسْ	أنا مع القمر والنجوم في السماء بكرة البئر تزغرد وهي تحكي أيامها.
نَشِّ مْعَ وَمَانْ فَاضَنْ أَسْ تَرْجَا دُو احَاوَلْ يَغْمِيدْ ڤَاعْ سِيدِيسَانَسْ	أنا مع الماء يتدفق من جوانب الساقية والعشب الأخضر نابت من حولها
تَحَجَّامْتْ تْكُسَ، سْ وَمْدُونْ تْنَقَّا تِزْنِينْ أَسُوضَانْ يُوكَرَّازْ سُ ارَانَسْ	الحمامة تهدل، من الحوض تلتقط الحب الذي سقط للفلاح من راحتيه
نَشِّ مْعَ وَرْنَانْ دَ الْعَايْدِي إِتْزَڤَّانْ أَغْيُولْ إِتَّنَّضْ الصَّابَتْ فِ دَارْنَسْ...	أنا مع الدرس (بعد الحصاد) والأهازيج تدوي الحمار يدور والحبوب تحت قدميه

يتعلق الشعر المزابي بالبيئة الصحراوية أيما تعلق، فهو جزء لا يتجزأ عنها، بل هو يستمد روحه وانطلاقته منها، فلا تكاد تجد قصيدة شعرية بالمزابية تخلو من أثر البيئة أو لا تشيد بها، في أبيات قلت أو كثرت..

كما نشير إلى أن هناك طائفة من الفنانين من أدى بعض قصائد هذا الديوان، ومن هؤلاء: يونس فرصوص، داودي عمر، عمر بوسعدة.. وآخرين، وكلهم مزابيون، وبعضها يؤدى في مناسبات الأفراح المختلفة.

وللأطفال أيضا نصيب في الشعر، وهي أناشيد من إنشائهم الخاص نجد منها على سبيل المثال:"بُوغَنْجَةْ"[17]، وهي دمية تصنعها الفتيات الصغيرات، ويلبسنها زينة متنوعة، ويطفن بها شوارع البلدة يزرن العجائز والأطفال المعاقين في منازلهم ليُروا تلك الدمية، ويطلبوا منهم الدعاء لنزول الغيث، وهنّ يطفن بشوارع البلدة، يلتحق بهن جموع الأطفال وهم يردودن أهازيج ودعوات لنزول المطر، ومنها خاصة مع بداية سقوط الرذاذ الخفيف قولهم:"اقْوَى اقْوَى أَ تَجْنِيوْتْ، أَمَسَّوَّغْ

تَارْظُونْتْ" وهي بالعربية:" اشتدي اشتدي يا مطرة، أصنع لك خبزة"[18].

ويذكر الشيخ القرادي -رحمه الله- بأن هذه المناسبات التي يحييها الأطفال كانت تقع في المولد النبوي الشريف، وفي عاشوراء، "..وكان تلاميذ المحاضر يتجولون في البلدة يتتبعون الدور واحدة بعد أخرى ينشدون نشيدًا باللغة الدَّارِجة، وكل ما يجمعونه يأتون به إلى المحضرة ليوزع على جميع الأولاد، فالزرع يُصنع خبزًا، والدَّراهم تُشترى خبزا من الحانوت، أما الشعير فيُخلط بالبُرِّ ويُصنع طعاما، أما البيضُ فيُقَسَّمُ على المعلمين، وقد تعطي لهم بعض العائلات قصبًا يقطعون منه الأقلام، وهذه العادة كانت تتكرر في عيد الأضحى كذلك، ولكن نشيدها بَربَرِي[19]، وهذه الجولات تُشيع المرح والفرح في تلاميذ المحاضر، ويستمر الخبز يوزع عليهم أكثر من شهرين"[20]..

ج. الأمثال والحكم -إِنْـزَانْ- (موضوعاتها وخصائصها):

الأمثال والحكم الشعبية المزابية كثيرة ومتنوعة المواضيع، وهي أصيلة أصالة المجتمع، وعريقة عراقة تنظيماته وأعرافه، وهي مستمدة من واقع المزابيين، ومما يستعملونه ويُعايشونه في حياتهم اليومية، كالمِنسج، والحقل، والنخيل..، أو من حيوانات البيت الأليفة؛ كالمعزاة والقط، أو الحيوانات الصحراوية كالذئب والأفعى..

كما أن من مميزاته تركيزها على الرجل والمرأة أكثر من الطفل، وأحيانا على الرجل أكثر من المرأة، هذا لأن المجتمع المزابي مجتمع رجالي (أي السلطة فيه للرجل) وعُمَّالي (أي أنه يحث على الجد في العمل)، تأمل هذه النماذج:

1- "مَانِي إِتْنَقَّزْ تْغَاطْتْ أَتْنَقَّزْ تِيغِيظَتْ" بالعربية: "حيث تقفز المعزاة تقفز الجَديَة"، وفيه إشارة إلى مُحاكاة الأبناء للوالدين، وفيه دعوة إلى الانتباه إلى دور الوالدين، الذي يجب أن يكون مثالا صالحًا يُقتدى به.

2- "أَجْضِيضْ إِيتْوَطَّافْ سْوَفْرِيوَسْ، أَرْجَازْ إِتْوَطَّافْ سِيلْسَسْ"، أي: "الطائر يُمسَك بجناحيه، والرجل يُمسَك بلسانه".

إشارة إلى احترام الوعد والكلمة التي يتفوه بها الرجل إن قطع وعدًا أو عهدًا على نفسه.

3- "وِ تْـتَّدِّ تَلَفْسَا، يَتْـقَّـدْ يُو زَلُّومْ" أي: "من لدغته الأفعى يخاف من الحبل"، إشارة إلى أخذ الحيطة والحذر.

4- "حَدَّنِّي إِلْسَسْ أَنْتِيمْ تَادْرَا نَ ادَّالَتْ" أي: "ذلك الشخص كأن لسانه مسلة نخلة تَدَّالَهْ"، وبالفعل فإن مسلة نخلة تَدَّالَهْ تتميز عن غيرها من مسلات النخيل بوقع وخزها الشديد، وبطول الألم بعدها، وكذلك حال سليط اللسان..

5- "وَاسِي وُلِيدْجِي تَنَصْرِيفْتْ أَدْ تَغْيُولْتْ وُلِيزَطْ أَزَطَّا أَمَّغْ وُلِيلَمَّدْ"، أي: التي لا تُخطئ في المِنسج لن تَنسُج ولن تتعلم، إشارة إلى المحاولة والخطأ وإلى التدرج في التعلم، وفيه تشجيع البنات على تعلم حرفة النسيج وغيرها.

6- "رَبِّ أُمِحَوَّجْ لَتْوِيرَا لاَ لَتْمِيرَا" أي: "أسأل الله أن لا يتركك للأبواب، ولا للحى" أي أن لا يحوّجك للأبواب تطرقينها وتسألين الناس المعروف، وللرجال -وهم من يضعون اللحى من دون النساء طبعًا- تطلبين معروفهم ومساعدتهم"، وهو إشارة إلى ضرورة الاتكال على النفس، وعدم انتظار الصدقات أو مساعدة الآخرين..

7- "وِخْسَنْ سُوفْ أَسِخْدَمْ تْفُويْتْ تَحْمَا" أي: "من أراد الغدير فليعمل له في الشمس الحارة"، وقد كان ذلك قديمًا في ميزاب، إذ يخرج الفلاحون إلى الشعاب في فصل الصيف لإصلاح السواقي التي تجلب إلى بساتينهم مياه الأمطار الموسمية في الخريف عند بداية موسم هطول المطر، وفي هذا حثّ على الجدّ في العمل واغتنام الفرص..

8- "أَرْكَاسْ يَبْهَايَسَنْتْ إِيتْغِيضَاضْ" أي: "الرقص يليق بالجديات"، والمراد بأن هناك أنشطة خاصة بكل فئة عُمريَّة، فلا يليق بالفتاة الناضجة أن تلاعب الصغيرات، أو أن تقوم بتصرفات طائشة، وفيه تحضير الأم لابنتها فيما.يستقبلها..

9- "أَمَهَلاَّ أَلَمْ أَمَلاَّلْ قاعْ أَتَّادُونْتْ" أي: "لاَ تَحْسَبْ بِأَنَّ الجَمَلَ الأَبيَضَ كُلُّهُ شَحم"، ومثاله في الفصحى "ليس كل ما يلمع ذهبا"، فلا يغر المرء بالمظاهر الخارجية البراقة.

10- "أَوَتَّدْجَا أَجْدَلْ إِ تْزُقَّـارْتْ" أي: "لا تصنع حوضًا لشجرة السدر"، ومعناه لا تضع المعروف في غير أهله، ونحن نعرف بأن شجرة السدر شائكة، ولا فاكهة لا ظل يرتجى منها.

د. المسرحية – تسُنايْتْ- (موضوعاتها وخصائصها): هناك العديد من المسرحيات التي مثلت على الخشبات في قرى ميزاب المختلفة، ولعل أهم مناسبة لتقديم العروض هي الأعراس الجماعية، إذ تتخذ الليلة الثانية من العرس في دار "الحَجْبَة" طابعًا أدبيًا فنيًا متنوعًا، تقدم فيه الأناشيد الجماعية والوصلات الفنية الفردية، والنكت.. وغيرها، ويحظى المسرح بحصّة مهمة من الليلة الثانية من العرس، ويتجلى في أشكاله المتنوعة من سْكاتشات كوميدية، ومنولوج، ومسرحيات اجتماعية جادة..

للأسف لم توجد نصوص مطبوعة أو منشورة تعنى بالمسرح إلاَّ القليل النادر، ومنها مسرحية للأستاذ عبد الوهاب حمو فخار، أستاذ الأدب المزابي، عنوانها: "تَايْدَرْتْ نْ وَغْلاَنْ" أي: "سُنبُلةُ مِيزَاب"، وهي مسرحية شعرية باللغة المزابية، قدمها لبنات متوسطة الإصلاح بغرداية، سنة 1993، وقد لاقت نجاحًا منقطع النظير حينذاك، ومثلت مرات عديدة.. وقد ضمنها المؤلف الكثير من أشعاره التي نشرها في ديوانه "إمطَّاون نَلفَرْحْ" (دموع الفرح)، وتحدث مطولاً عن ميزاب البيئة والنشأة، عن الماضي المجيد، وعن الحاضر ومستقبل التحديات...

وقد كتب بخط يده في ظهر الكتاب: "إلى بنت الوطن، تلك التي تثقف وتظهر في مجتمعها كسُنبلة قمحٍ عامرةٍ، كلما ازدادت ثقلاً ازدادت انحناءً نحو الأرض التي أنبتتها..".

ويدور الحوار في هذه المسرحية بين مجموعة من النساء وبعض العجائز وهن منهمكات في شؤون المرأة المزابية الماكثة بالبيت، ففيهن من

تغزل الصوف، وفيهن من تجمعه وتلفه، ومن تنسجه في المنسج التقليدي.. وهكذا، وبين الفينة والأخرى تقوم مجموعة من الفتيات المتتلمذات بإنشاد مقاطع شعرية بديعة، ومنها هذه الكلمات:

"..تَنْفُسْتَنَّغْ تَازَجْرَارْتْ أَيَلِّ، تَنْفُسْتَنَّغْ تَازَجْرَارَتْ أَيَسِّ.. مَنَّشْتْ إِعَافْرَنْ إِرْجَازَنْ!!، مَنَّشْتْ إِنْكَضَنْ أَسْحَارِي؟! اسْحَارِي نَكْضَنْ نَتْنِينْ دِ وَارَنْ سْ تِيبِنِي دْ وَمَانْ دَ لْبَارُودْ عَاشَنْ تِشْلِ نْ إِلْمَانْ تْوَنَسِيتَنْ تَزِرِي دِ إِتْرَانْ دْ رَبِّ مْعَاسَنْ..[21].	قصتنا طويلة يا بني، قصتنا طويلة يا بناتي.. كم كابد الرجال؟! كم قطعوا الفيافي؟! الفيافي قطعوها هم والأسود بالتمر والماء والبارود عاشوا سير الجمال يؤنسهم القمر والنجوم والله معهم..

هـ. الأحاجي والألغاز (موضوعاتها وخصائصها):

الألغاز:

وهي من الفنون الأدبية التي يتميز بها الصبية المزابيون عن الراشدين، وقد كان هذا اللون الأدبي رائجًا بين الأطفال بشكل كبير، وإن تراجع بعد ظهور التلفاز والألعاب الإلكترونية وذيوعها بشكل ملفت للنظر، ومقلق في نفس الوقت، وما زلنا نتذكر مجموعات الأطفال أمام باب المدرسة القرآنية، أو المدرسة الرسمية، وهي تنتظر أن يفتح لها الباب، وهي تتنافس في وضع الألغاز تلو الأخرى ليعجز الأطفال بعضهم البعض عن حلها.. في جو مفعم بالمرح والحبور..

ويبدأ لغز الأطفال بالمزابية دائمًا بعبارة: "أَزَق إِ بَتَّ" أو "أَكَسْ إِ بَتَّ" ومعناها بالعربية: "ما معنى" أو "ما هو"، ومثال ذلك قول الطفل لصاحبه: "أَكَسْ إِ بَتَّ إِقْنْ وَحْبَا يَصْلَحْ، يَشُّورْ سْ اِزَارَغَنْ، وُّ تِيرَزَّمْ غِيرْ بَابَسْ؟!"، "أَيَنْ دِ إِيِي"، تعريبها: "ما معنى علبة مملوءة بحجار بيضاء لا يفتحها إلا صاحبها"، هو: الفم"، أو قولهم: "أَكَسْ إِبَتَّ إِقَّنْ شْرَا تْرَقْبَتْ إِيرَقْبَاتْشْ"؟! "أَيَنْ دِ "تِيسِيتْ"، تعريبها: "ما هو الشيء الذي تراه ويراك؟"، هي: "المرآة"، أو قولهم: "أَكَسْ إِبَتَّ إِقَّنْ وُّجِي تْرَقْبَتْ إِيرَقْبَاتْشْ" أَيَنْدْ: "أَجَلِّيدْ أَمَقْرَانْ"، تعريبها: "ما هو الشيء الذي لا تراه

وهو يراك"، هو: الملك العظيم" (أو ملك الملوك سبحانه وتعالى)، ..وأمثلة هذا عند الأطفال كثيرة وعديدة[22].

الأحاجي: (أَلاَّوَنْ).

الأحجيات في الثقافة الشعبية أصيلة في المجتمع الجزائري، ومنها "البوقالات" عند العاصميين، والتي كانت تلعب في المناسبات الخاصة كسهرات رمضان، والأعياد، وعاشوراء، وفي المناسبات السعيدة، حيث يجتمع أفراد العائلة، وكانت السيدات والعجائز والبنات الشابات يجلبن إناء من الفخار الذي يسمى "البوقال" وهي قُلَّة متوسطة تملأُ بالماء، وكل امرأة أو فتاة من الحاضرات تضع في البوقال خاتمها الخاص أو الذي تضعه بكثرة، فتُلقى في تلك "البوقالة"، وفي كل مرة تنشد العجوز التي تتولى تسيير تلك الجلسة الحميمية بذكر أنواع من الفال الحسن، وجميع الحاضرات مصغيات بانتباه شديد إلى ما تقوله تلك المرأة من كلام حسن وأدعية بالخير..، ويزداد الشوق لمعرفة صاحبة البوقالة الجميلة تلك، وذلك كلما أدخلت العجوز يدها في البوقال لإخراج خاتم ما، لأنها ستختار عشوائيا خاتما من الخواتم الموجودة فيه، وبالتالي صاحبة الخاتم هي صاحبة البوقالة، فيُردُّ إلى صاحبتها وتكون صاحبته هي من قيل فيها ذلك الفال الحسن.

هذه الصورة الموجودة في الجزائر العاصمة، توجد إلى اليوم في ميزاب ولكن بشكل مختلف نوعًا ما، فعوض إناء البوقال، توضع مجموعات صغيرة من النُّقَل والحلويات والفول السوداني.. في مجموعات متساوية.

وبعد أن يوزع ما تَجمَّع بنسبٍ متساوية تتقدم كُبرَى النساء الحاضرات أو أحفظهن لروائع الحكم _وهي بالبربرية_، وقبل أن تبدأ التوزيع والكلام تتنحى تِنتَانِ منهن جانبًا ويأخذن علامات على قدر النساء الحاضرات أو يكتبن أسماءهن في أوراق صغيرة ثم يَطوِين تلك الأوراق ويعطينها لهذه المقدمة، فتقول ما شاء لها القول عند إلقاء كل علامة أو ورقة من تلك الأوراق على الحصة[23]، وكثيرا ما يصدق

حدسها عند الكلام على صاحبة تلك الورقة التي لا تعلمها، فتتحدث حين تتحدث عنها ببعض ما تشعر به صاحبة الفال، وهذا يكثر عند الأمهات المُسِنَّات..

ولم يسجل أحد -فيما نعلم- تلك الحكم والمقالات، ولو فعل لسجل لنا قسمًا مهمًا من الثقافة الشعبية التي كنا ولا نزال -بجهلنا- لا نعطي لها قيمتها الحقيقية في مقوماتنا الأصيلة، ولعلّ الله يمنّ علينا بتسجيلها وشرحها ومحاولة التعرف إلى ما فيها من أدب شعبي وتاريخ وثقافة، فهل يسمع الشباب؟!!.

وتسمى هذه العملية "أَلاَّوَنْ" وهي جمع لكلمة "أَلاَّوْ"[24] وهو الحصة أو النّصيب، واشتهرت من الأمهات الصالحات في بلدة العطف السيدة "لاَلَه كْ أَنْ عُومَرْ"، وكانت امرأة فاضلة أتقنت هذا الفن وصارت ماهرة به، وإن كان للأسف لم يُبادر أحد إلى جمع أقوالها الحكيمة تلك إلى تاريخ اليوم[25]..

أما بالنسبة للأطفال فنفس التظاهرة تُقام لهم، فتوضع لهم حلقة خاصة بهم، ويعقدون "الفال" بينهم، وهم في ذلك يحاكون الكبار، وقد يُشركون في حصص الفال مع بقية أفراد العائلة، ولكن يتعمد تصغير حصصهم من الحلوى فتتميز عن غيرها، وهذا حتى تعقد لهم الجدّة "الفال" الخاص بهم كأطفال صغار.

7 - علاقة الفنون الأدبية في ميزاب بالبيئة الصحراوية المحلية:

في حقيقة الأمر ومما سبق ذكره يدرك المتأمل تلك العلاقة الوطيدة التي تربط الأدب بالبيئة الصحراوية، كيف لا والمزابي منذ القديم يكافح من أجل البقاء، فبيئته في الأصل قاحلة جرداء، وهو من صنع بكده وسعيه الحثيث تلك الواحات، وحفر الآبار واستخرج الماء وأنشأ القرى العامرة إلى اليوم..، وصار ينتقل بينها وبين الواحة في رحلة أشبه ما تكون بـ"رحلة الشتاء والصيف"، الشتاء في القرية والصيف في الواحة.. وقد كانت الروح الجماعية في كل شيء تقريبًا هي ما يجمع المتساكنين في

القرية الواحدة بدءاً ببناء المسجد والمنازل، وانتهاء بالأعمال الزراعية الموسمية..

وفي تلك الأجواء من الحركية والحميمية ظهرت فنون القول والشعر السالفة الذكر، متأثرة بالبيئة الصحراوية المحلية، تصنع يوميات سكان ميزاب الاجتماعية والحضارية، وتحذو بهم نحو غد مشرق..

ومن هنا فإنه وبإيجاز مفيد يمكن القول بأن الأدب المزابي عموماً متعلق بالبيئة الصحراوية أيما تعلق، وهو جزء لا يتجزأ عنها، بل هو يستمد روحه وانطلاقته، منها فلا تكاد تجد قصيدة شعرية بالمزابية تخلو من أثر البيئة أو ما يُشيد بها، في أبيات شعرية قلّت أو كثرت، أو في حكاية طالت أو قصرت.. والأمثلة التي أوردناها خير دليل على ذلك.

8 - آفاق تناول الأدب المزابي:

في حقيقة الأمر إن موضوع عرضنا هذا واسع ومتشعب، ولكن المبدأ القائل:"ما لا يُدرك كله لا يُترك جلّه"، هو الذي يدفعنا إلى خوض غماره، لذا يظل هذا الموضوع -دون شك- بكرًا، وبحاجة إلى المزيد من البحث والتنقيب.

وقد جرت عادة الملتقيات أن يخلص المشاركون إلى وضع بعض التوصيات أو المقترحات العملية، التي يرجون تحقيقها مستقبلا فيما يخدم أهداف الملتقى وطموحاته، ومن هذه التوصيات ما يأتي:

أولاً: إن مجالات الأدب التي ذكرناها من حكاية وشعر ومسرحية، ومن أحجية ولغز.. جميعه متعلق بواقع حياة المزابيين وهي حاضرة في يوميات النساء والرجال والأطفال، وتظل جميعها بحاجة إلى التسجيل والجمع، وإلى التوثيق والدراسة والنشر.. من هنا ندعو مخابر البحث والفرق البحثية المتخصصة والتي تشتغل برصد التراث الأدبي واللغوي إلى التصدي إلى هذا التراث الدسم بتدوينه وتقديمه للقرّاء، لتحصل منه الفائدة ويقع التواصل بين الأجيال.

ثانيًا: إن دور بعث تراثنا الأدبي الصحراوي مهمة الجميع، بداية من الأسرة، تليها الروضة والمدرسة، ثم الجمعيات الثقافية التي يمكنها تنظيم

ورشات تُعنى ببعث هذا التراث، ومنها أيضا تشجيع التأليف والنشر في هذا المجال، وتسطير المسابقات التحفيزية للأطفال، لغرض تخصيب فكرهم، ودفعهم إلى التعرف على ذاكرتهم الشعبية، وما أحوجنا إلى رصد القيم التربوية والخُلقية التي أنشأ بها الأسلاف أبنائهم، وقد كانوا يسعون إلى تكوين الفرد الصالح، والأسرة السعيدة، والوطن الفاضل..

ثالثا: إن التنوع الجغرافي والثراء الثقافي لبلدنا الكبير يستوجب منا بالفعل بدل المزيد من الجهد في سبيل تثمين هذا التراث والتعريف به، وذلك من خلال عقد مثل هذه الملتقيات، التي نطمح أن تنتقل من الوطنية إلى المغاربية، لما يربط أوطان مغربنا الكبير من أواصر العرق والدين واللغة والتاريخ والمصير المشترك.

الهوامش والمراجع المعتمـــــــدة

(1) مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، بمناسبة انعقاد الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، طبع دار البعث قسنطينة، ج1، ط1، 1973، ص44.

(2) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المطبعة العربية، الجزائر، ط1، 1953، التقديم ص6.

(3) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1963، ص291.

(4) المراد بالمغرب هنا: المغرب الكبير أو شمال إفريقيا.

(5) محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، مطبعة عيسى الباب الحلبي، القاهرة، ط1، 1964، ج1، ص12.

(6) حاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية غرداية، الجزائر، ط1، 1991، ص9.

(7) احمد بن يوسف أطفيَّش، الرسالة الشافية، طبعة حجرية، ص35.

(8) حاج سعيد يوسف، تاريخ بني مزاب، ص16 – 17 بتصرف.

(9) د. عبد الحميد بوسماحة، محاضرات في الثقافة الشعبية، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية بوزريعة، 2008، ص12-14.

(10) نفسه، ص17.

(11) ينظر: مقرر التدريس الخاص بقسم اللغة والأدب العربي، معهد الآداب واللغات، النظام القديم (الكلاسيكي)، برنامج مقياس الأدب الشعبي، كله.

(12) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وتورثها المباركة، المطبعة العربية، ط1، 1971، ج2، التقديم.

(13) الشيخ القرادي، رسالة في بعض عادات وأعراف وادي مزاب، تحقيق، يحي حاج امحمد، نشر جمعية النهضة، العطف/غرداية، ط1، 2009، ص47-48.

(14) عبد الوهاب حمو فخار، إِمَطَّاوَنْ نَلْفَرْحْ (دموع الفرح)، المطبعة العربية غرداية، ط1، 1984، ص236-239.

(15) أي: أنا مع ذكريات الزمن الجميل، مع التقاليد المحلية البديعة، هذه التي صار الحنين إليها يزداد ويتضاعف مع مرور الوقت.

(16) هو الحصة أو النصيب، وهو أيضا تسلية عائلية أصلها من "الفَال الحسن" الذي هو مستحب، بعكس التطير الذي هو منهي عنه.

(17) بعض المناطق الأمازيغية الأصل واللسان في الجزائر ما تزال تحيي هذه التظاهرة الخاصة بالأطفال.

(18) هذا الخبز تصنعه الأمهات في المنزل ويوزعه الأطفال على بعضهم كالصدقة والمعروف..

(19) للأسف لم أتوصَّل بعد إلى نصِّ النشيد.

(20) الشيخ القرادي، رسالة في بعض عادات وأعراف وادي مزاب، ص134.

(21) عبد الوهاب حمو فخار، "تايدرت ن وغلان" (سنبلة ميزاب)، مطبعة الواحات، غرداية، ط1، مارس 1994، ص10.

(22) معظم هذه الألغاز نقلته مباشرة من أفواه الأطفال الصغار، لذلك قلت هو عندهم كثير، وباستطاعتهم توليد غيره بمعان وعبارات مختلفة.

(23) هو: ما يشبه "البوقالات" عند العاصميات.

(24) وهو فيما نحسب من "الفَال الحسن" الذي هو مستحب، وقد سبق الإشارة إليه.

(25) الشيخ القرادي، رسالة في بعض عادات وأعراف وادي مزاب، ص125-126.